

## الأستاذ عبد العزيز جادو

أزعم فيما أزعم من الآراء أن صديقي الباحث النفسى الروحى الأستاذ عبد العزيز جادو شخصية خيالية لا وجود لها فى عالم الحقيقة، وأنا أزعم لنفسى هذا الزعم على حين أزوره بين الفينة والفينة فأناقشه فيما يعن من رأى وجهاً لوجه، ثم أتلقى خطاباتة الدورية فأسارع بالرد عليها لتصل إليه وهو مع ذلك كله فيما أزعمه لنفسى من الآراء شخصية خيالية لا وجود لها فى دنيا الناس.

أأكون سوفسطائياً أنكر حقائق الأشياء؟ لأعرف إطلاقاً أنى كذلك! ولكنى أتابع الدكتور طه حسين فى منطقته الذائع حيث كتب فصله البديع عن مجنون ليلى، فرأى من متناقضات أخباره، واختلاف أنبائه ومفارقات أحاديثه ماجعله يزعم أن قيساً شخصية خيالية، وهأنذا أشاهد سيلاً من المتناقضات المتضاربة سيغرق صديقى عبد العزيز جادو فى طوفانه. فلا أتابع الدكتور طه حسين فى منطقته فأزعم ما أزعم، خطأ كان ذلك أم صواباً؟ والخطأ إذ ذاك هين مغفور لمثلنى، وكيف وقد اغتفره القراء لعميد الأدب الكبير.

أجلس ما بينى وبين نفسى بعض اللحظات فأنسى نسياناً تاماً أنى أعرف عبد العزيز وأصاحبه كتفاً إلى كتف، وأناقشه وجهاً لوجه، أنسى ذلك لأراجع أنباءه، وأبحث آثاره ثم أصدر حكى على هذه المراجعة وحدها، فأجدنى أزعم أنه شخصية خيالية لم تعش فى الأسكندرية يوماً واحداً، وإنما لفق الرواة أخبارها، كما لفقوا أخبار المجنون، ثم صنعوا له مؤلفاته الكثيرة وأبحاثه الضافية، كما أنشدوا الشعر الغرامى وعزوه إلى قيس فى منطق الدكتور، وإذا تعجب القارىء من ذلك فليسمع:

لقد جاء عبدالعزیز الناس ذات یوم بشعر عروضی ملتزم نشره تباعاً بمجلة «المعرفة» فعرف عنه البعید والقرب أنه شاعر من مدرسة الشاعر الكبير علی الجارم یحتذى ویقلد، وتوالت قصائده بالمعرفة لتؤكد هذا الطابع التقليدي، حتی ظن الناس أنه سیزهب إلى بغداد ذات یوم ویقول فیها ما قال الجارم الكبير هناك:

السنا حماة القول فی كل محفل تتيه فی كل أرض منابره

وأخذوا یرصدون كوكبه من هذا الأفق وحده، ولكن أیدیهم تمتد بعد فترة إلى قصة غرامية من الشعر المنشور تتضمن خطرات مهجرية تحت عنوان، «آمال» فیرى القراء نمطاً من قول جبران خلیل جبران یحتذیه عبد العزیز، فیدهشون ویتساءلون: أصحاب رصانة السبك، وجودة الحبك فی شعر المعرفة هو صاحب الهمسات والومضات فی خواطر «آمال»؟ وكيف تلاقى الجارم وجبران فی إطار؟ لا بد أن یكون هناك تشابه فی الأسماء، وأن عبد العزیز جادو شخصیتان لاشخصیة واحدة، ولكن صاحبنا أمام معارفه وأصدقائه یعترف أنه یجمع الثلج والنار فی إناء.

وإلى هنا، فالمسألة مسألة حيرة واشتباه فقط، لم تصل بعد إلى التناقض فی إنتاج عبد العزیز! ولكن هذه الحيرة تشتد حین نجد عبد العزیز یفاجئ الناس بضرب من الفلكلور الفكاهی ینشره فی مجلة «الراديو والبعكوكة»، وفی مجلة «الطائف المصورة» فیترك الجارم وجبران إلى احتذاء حسین شفیق المصری! ویرى القراء فی إنتاج عبد العزیز شيئاً جدیداً لا یصل بمجلة «المعرفة» ولا بمجموعة «آمال» بسبب من الأسباب! أهو عبد العزیز الثالث أم ترى ماذا؟

لازلنا فی دائرة الحيرة والالتباس! ولكننا نکاد نقطع الشك بالیقین حین نمر فی شارع شهیر بالأسكندرية، فنجد محلاً تجارياً كبيراً بیع «الحدائد» المختلفة الحجم، وقد وضعت علیه لافتة كبيرة تحمل اسم «عبد العزیز جادو» ونرى الرجل بلحمه ودمه یناقش فی أسعار المسامير والمفصلات، ویکاید زبائنه ویکایدونه. . لا بد أن یكون هناك تشابه فی الأسماء وأنه عبد العزیز آخر دون نزاع، فإذا التبس الجارم بجبران وحسین شفیق فلن یلتبسوا جميعاً بسادتنا التجار. أترى قد ودع الرجل

عالم الشعر والأدب؟ من المعقول أن يحصل ذلك، ولكن ليس من المعقول أن يودع هذا العالم إلى المسامير والمفصلات فجأة دون أسباب؟ وهذا ما كان!

وتمر على الشارع الكبير بحى كليوباترة بالأسكندرية لتقرأ اللافتة التجارية ما بين مصدق ومكذب فيدهشك ذات يوم أن ترى جوارها لافتة أخرى تقول: عبد العزيز جادو صاحب جريدة «الشاطي» فتضرب كفاً بكف، وتقول: هل أصبح تاجر الحديد صاحب جريدة ورئيس تحرير؟ وتتطلع إلى قراءة الأعداد فتزيد الدهشة في نفسك حين تجد في صدر الصحيفة هذه العبارة «جريدة الشاطي» توزع مجاناً لمن يطلبها. ما هذا؟ إن عبد العزيز الذي نعرفه فقير يعتمد على ستر الله في تربيته أولاده، ولن يعقل إطلاقاً أن يصدر صحيفة توزع بالمجان!! لا بد أن هناك مليونيراً آخر يحمل اسم عبد العزيز جادو! ولكن إدارة المجلة بمنزل عبد العزيز؟ وكلمات الكتاب ورسوم الكاريكاتوريين توجه إلى عبد العزيز، وهو يطالع تجاهك ما يرد من الرسائل، ويخط أمام عينيك الافتتاحية التي لا تلبث أن تقرأها في صدر الشاطي! مهما تأكدت من ذلك كله فأنا بعقلي لأصدق! وأذهب إلى صديقي وصديقه الأستاذ الكبير نقولا يوسف فأسأله عن هذا الكنز الذهبي الذي انفجرت فوهته تحت قدمي عبد العزيز فجأة فأتاح له أن يوزع الشاطي بالمجان؟ فيضحك نقولا ثم يقول: «كنز إيه يا عم!» المسكين يعتمد على بعض إعلانات تكفى نصف التكاليف، ثم يدفع النصف الآخر من عرق جبينه بالمحل الجديد! فأسأله ثانية: وما هذا العناء؟ لماذا لم يخفض قيمة الاشتراك بما يجعله يخرج من الهوى لاعليه ولاله؟ فيقول: لقد تعب! جرب ذلك بضعة أعداد فأكل المشتركون ثمن الشاطي، وطال انتظاره بدون جدوى، فكتب عبارة «توزع مجاناً» ليريح ويستريح! ثم أغمض عيني لأنسى أن عبد العزيز حقيقة واقعة، أغمضها كيلا أراه وأنا أقول له: ولماذا لا تكتفى بالنشر في الصحف، وتوصد «الشاطي» رحمة بأولادك الضعاف؟ فيقول: أنا أنشر أفكارى هنا كما أريد، أما رئيس التحرير في مجلة أخرى فله مواصفات خاصة قد لا تقبل كل ما يقال. أنا حر يا عم!! وأسمع وأسمع ثم أقول، هذه رابعة المتناقضات!

وتفاجئني دار المعارف ذات يوم وأنا بالمنصورة بعيداً عن عبد العزيز بكتاب نفسى يصدر فى سلسلة «اقرأ» تحت عنوان «الأحلام والرؤى» لمؤلفه عبد العزيز جادو، فأتصفح الكتاب، فأجده يلم بالحقائق الجديدة لعلم النفس، فيتحدث عما يقوله النفسيون عن اللاشعور، والحيل الوهمية، والعقد المركبة، وما إلى ذلك. وأنا أعرف أن تاجر الحديد وصاحب «الشاطىء» وتلميذ الجارم وجبران لم يدرس علم النفس دراسة مدرسية أو جامعية، فلا بد أن يكون عبد العزيز جادو قطعاً هذه المرة غير عبد العزيز الإسكندرى الذى يسكن فى شارع الجمال رقم ٧ فى حى كليوبتره بالرمل البهيج، لن يكون هذا بحال من الأحوال، وكيف؟ والشاعر يقول:

الشرق منزلنا ومنزلهم غرب، وأين الشرق والغرب؟

ولكن البريد يسرع إلى بهدية من كتاب «الأحلام والرؤى» تحمل توقيع عبد العزيز! يالله متى درس عبد العزيز علم النفس؟ وكيف تمكن منه تمكن المؤلف لاتمكن القارئ؟ وأين وجد وقته فى دنيا التجارة والصحافة والأولاد؟ وأتلمس الأبناء فأعرف أن «الشاطىء» قد احتجبت بعد أن أكلت كل مادخره عبد العزيز، وأن الرجل أراد أن يتبصر بالقراءة فاندفع إلى مراجعة كتب كثيرة فى علم النفس من أوروبية وعربية حتى استطاع فى ثلاثة أعوام أن يكون بثقافته الذاتية عالم نفس يضع الكتب المتخصصة كما يضعها أساتذة الجامعات فى كليات التربية والآداب!

ويطول عجبى فترجع إلى وسوستى، وأزعم أن الرجل شخصية خيالية؛ إذ كيف يحلل النفس البشرية بأدق الأجهزة العلمية بائع مسامير؟! ولكن بحوث عبد العزيز تتابع لتغطينى وتربكنى حيث يحمل البريد بين الفينة والفينة كتباً نفسية تصدرها دار المعارف لعبد العزيز تحت عنوان «طرق النجاح»، و«كيف تكون سعيداً» و«نحو ابتسامة مشرقة» ثم أرجع إلى أعداد «الرسالة» و«الأهرام» و«الأديب» و«الأقلام العراقية» فأجد عبد العزيز يملؤها علم النفس! فأقول فى نفسى هذه العبارة المضحكة التى يقولها المصريون فى مجال التعجب والإعجاب: «يخرب بيتك يا عبد العزيز» أنت شيطان!

وتمضى المفارقات إلى نهايتها، فيكتب لى بعض الأصدقاء بالأسكندرية أن الشخصية الخيالية تركت علم النفس واشتغلت بعلم الروح، فلا أكاد أصدق، ولكنى أعلم أن الباحث النفسى الشهير مكودوجل قد خطا هذه الخطوة فجعل ميدانه النفسى طريقاً إلى البحث عما وراء الغيب! فربما تكن روحه قد تقمصت روح عبد العزيز فانطلقت بها من شرارة علم النفس إلى ما وراء الأثير! وتصدق الأيام مازعم الصديق فتصدر دار المعارف فى سلسلة «اقرأ» كتاباً لعبد العزيز تحت عنوان «الروح والخلود بين العلم والفلسفة» ويحيئنى البريد بكتاب عبد العزيز مهوراً بإهدائه وتوقيع! ولكنى أغمض عيني إذ لا أستطيع القدرة على مجابهة كل هذه المفارقات من المتناقضات.

وتسوقنى الظروف الطارئة إلى زيارة الإسكندرية فأهرع إلى محل الحديد لأسامر صديقى القديم بعض الوقت فأجد المحل غير المحل، والتاجر غير التاجر، فأدهش وأتساءل عن صاحبي، فأفاجأ بأن عبد العزيز جادو يشغل الآن منصب المدير للعلاقات العامة بإحدى الشركات التجارية الكبرى بالأسكندرية، لأن خبراته الاجتماعية قد جذبت إليه مجلس إدارة الشركة فاختاره مديراً للعلاقات العامة، حيث يباشر منصبه بدبلوماسية لايلم بها سفير متخصص فى وزارة الخارجية! وكم أزاح من مشاكل وذلل من عقاب! فأقول فى نفسى: ربما تسأل عن عبد العزيز مرة أخرى فيما بعد فتجده شيخ المعهد الدينى! أو متخصصاً فى شركة لصابون! أو مهندساً فى مؤسسة للنسيج! ثم يقابلك فى كل هذه الوظائف ليثبت لك أنه فى كل وظيفة متخصص أصيل! وكأننا نعدو الواقع إلى الخيال.

وآخر نبأ تلقيته عن عبد العزيز أنه يعكف على خريطة الجزيرة العربية ليحدد الأماكن الأدبية القديمة مثل عكاظ، ولسع، والعقيق، وودان، والغوير، والرقمتين، وأنه يقرأ مؤلفات ياقوت، والبكرى، وحمد الجاسر، وأبى على الهجرى، وقد كتب عن بعضها بمجلتى «الأديب» اللبنانية و«العرب السعودية»! فلم أدهش فى شىء؛ إذ لو قيل لى إن عبد العزيز صعد فى مركبة أبوللو لينزل على سفح القمر مع الأمريكان لأنشدت قول القائل :

ليس على الله بمستكثرٍ أن يجمع العالم فى واحد

## الأستاذ علي أحمد باكثير

كنت طالبا بالسنة الرابعة من القسم الابتدائي بمعهد دمياط الدينى، ف وقعت فى  
يدى الثقافة التى تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر، وبها إعلان عن مسابقة  
أدبية فى القصة الطويلة تبرعت بمكافأتها السيدة قوت القلوب الدمرداشية، ولم  
أكن أقدر قيمة أدبى الهش، فصممت أن أشارك فى المسابقة، وكتبت ما يقرب من  
ستين ورقة تدور حول (فتح مصر) متأثراً بقصة طالعتها لجورجى زيدان فى هذا  
الموضوع، هى قصة أرمأنوسة المصرية، وبمقال كتبه الأديب الكبير الأستاذ مصطفى  
صادق الرافعى تحت عنوان «اليمامتان»، وحين ظهرت نتيجة المسابقة كان الفائز بها  
الأستاذ على أحمد باكثير، إذ تقدم بقصة رائعة تحت عنوان «سلامة القس» .

ثم أخذت مجلة الثقافة تنشر قصة سلامة على حلقات متوالية كشأنها فى  
قصص الأستاذ محمد فريد أبى حديد، فأكبت على قراءة الحلقات لأعرف قيمة  
نفسى، فتأكدت أنى كنت غراً حين قذفت بقلمى فى سباق بعيد الشوط لايجلى فيه  
غير الأفاذاذ، إذ كانت قصة «سلامة» من روائع الأدب المعاصر فكرة وتحليلاً  
وتعبيراً وتصويراً، وماظنك برواية تدور حول العفاف الطاهر يتصدى لحب مضطرم  
كاللهيب، هائج كالبركان، فيمده بزاز من الصبر والثقة ورجاء المثوبة، ورجبة  
التوصل فى دار البقاء لا فى دار الفناء، وبطلها ناسك عابد اشتهر بالفقه والدين،  
وبطلتها مغنية رائعة الجمال نقلها حب صاحبها إلى دنيا التصوف والعفاف! أثرت  
هذه القصة فى نفس التلميذ الناشئ فجعل يترقب كل ما يصدر عن براعة أحمد  
باكثير بشوق وصبر نافذ ومن حسن الحظ أنه كان كاتباً إسلامياً ملتزماً فساعد نشأتى  
الأدبية مساعدة ألسها فيما أفضل وأوثر من التيارات الفكرية المعاصرة، وقد

اختمرت فى نفسى فكرة لقائه والاعتراف من منهله عن عيان مشافه لاكتفاء بالورق المطبوع فحسب. . ولكن متى؟

### قصيدة نادرة:

وبعد سنوات قاربت الخمس، لقينى أذى الأستاذ أحمد الشرباصى وكان يعرف إعجابى بعلم أحمد باكثر فأخبرنى أن حفلة تأبينية كبرى أقيمت لشهيد عربى شنى ظلماً واضطهاداً ألقى فيها الأستاذ على أحمد باكثر قصيدة كانت حديث المجتمعين كلهم، لأن الشاعر قد انتحى منحى مفاجئاً، إذ جاء بالقصيدة على لسان البطل الشهيد وقد افتتحها بهذا البيت .

فيم احتفالكمو هذا لتأبيني أنتم أحق بتأبين الورى دونى

ثم مضى يلوم الخاملين الخانعين، الذى يخنون رءوسهم للطغيان فى براعة فائقة، وحين انتهى من الحفل خاف المستمعون أن تعوق الرقابة نشر القصيدة فأقبلوا ينسخونها، وقد قام من يملى على الجمع، وكل يحاول أن يلتقط مايفد إلى سمعه، ثم جلس الناسخون لمقابلة الأبيات فكان ذلك مشهداً من مشاهد الشعر فى عصور بنى العباس قبل أن تأتى المطبعة، إذ يلقى شاعرٌ كأبى تمام قصيدته فيتسابق السامعون إلى تدوينها مشافهة، سألت فى لهفة وهل لديك نسخة منها، قال ليست عندى الآن، فقد أخذها من يمر بهامن المتأدبين من هواة الشعر الحماسى ، فقلت: لقد أقلقتنى، فكيف أصبر على ما أنا فيه قال: أنت تمر بالمنصورة فى طريقك إلى قرينك والأستاذ على أحمد باكثر مدرس للغة الإنجليزية بمدرسة الرشاد الثانوية، فاذهب إليه وهو إنسان نبيل متواضع، وإذا لم يكن معه نسخة فسيمليها عليك من محفوظه، فانتهزت أول فرصة للسفر ونزلت المنصورة مبكراً فتوجهت إلى الرشاد، وسألت عن الشاعر المطبوع، ولم يكن بالمجهول إذ قال من سألته إنها مدرسة باكثر وليست مدرسة الرشاد، كل يوم يأتى الأدباء ليسألوا عنه متشوقين، فقابلته، ورحب بى، وحادثته، وقد أدرك الشاعر حياى من انقطاع كلماتى، فشجعنى بود كبير، أزال عقدة لسانى فأخذت أتحدث إليه عن إعجابى به منذ خرجت قصة سلامة إلى الوجود، كما عرف تتبعى لآثاره الفنية تتبعاً متصلاً

فأشرق وجهه بابتسامة ارتياح ثم تحدثنا عن القصيدة التي سمعت في طلبها، فقال: إنها قيلت في الشهيد العراقي البطل «صلاح الدين الصباغ» وقد وقف في وجه الإنجليز بطلاً من أبطال ثورة رشيد عالي الكيلاني، ثم فر بعد اختفاء الثورة، ولجأ إلى تركيا، ولسوء حظه وقع في يد من قبض عليه لينفذ فيه حكم الإعدام علناً ببغداد، فهاج الرأي العربي العام في كل مكان، فتأججت مشاعري، فقلت هذه القصيدة مبتدئاً بقولي على لسان الشهيد:

فيم احتشادكمو هذا لتأبيني      أنتم أحق بتأبين الوري دوني  
إنى نزلت بدار الخلد في رغد      بين الخمائل فيها والرياحين  
في جنة مابها خوف ولاحزن      لولا رثاء لحال العرب يشجيني  
لاتندبونى فإنى لم أمت ضرعاً      فإن علمتم على الذل فابكوني  
وإن تريدوا لوجه الحق تكرمتي      فابغوا الشهادة للعالم وللدين  
فابن الوليد على اليرموك يرقبكم      وليث أيوب يركبكم بحطين

وقد نزلت القصيدة من نفسى منزلاً كبيراً حين سمعتها من الشاعر، وكان لديه عدة نسخ فأعطاني نسخة عليها الإهداء الكريم، ولم ألبث أن قلت له لقد فاجأت المستمعين بمذهب جديد في التأبين حين جعلت الحديث على لسان البطل الشهيد إذ أعدته ناطقاً شاخصاً، وكأنه هو الذي تكلم القصيدة لأنت، فابتسم باكثير وقال لى: لى تجربة سابقة فى هذا المنحى، فقد احتفلت كلية الآداب بالجامعة المصرية بذكرى المتنبي الألفية حين كنت طالباً فيها، وأقيم موسم للبحث الأدبى حاضر فيه كبار الأساتذة كطه حسين، وأحمد أمين، وعبد الحميد العبادى، وعبد الوهاب عزام، وأحمد الشايب، ورأينا نحن الطلاب أن نقيم احتفالاً شعرياً يحضره الأساتذة ليسمعوا صوت الطلاب شعراء بعد أن سمعهم الطلاب باحثين، وكنت مشتهراً بنظم الشعر أنشره على صفحات الرسالة والفتح، فيلقى قبول القراء فدعيت لإعداد قصيدة مناسبة، وقلت فى نفسى لا بد أن تأتى بلون جديد يكون

محللاً للانتباه، فهدانى تفكيرى إلى أن أتكلم قصيدة على لسان المتنبى يتحدث عن نفسه ثم يشكر القائمين بالاحتفال بذكره، فوفقنى الله إلى أحسن مايمكن أن أقول، وبدأت بقولى على لسان المتنبى:

من المألأ العلوى من عالم الخلد      أهل عليكم بالتحيات والحمد  
تفحمتُ حجب الغيب حتى أتيتكم      لأجزيكم عن بعض إحسانكم عندى  
كأن الفضاء اللانهائى سائر      على كُرّة لاحد فيها سوى حدى  
أجل ألف عام حال بينى وبينكم      فهلا سبقتم أو تأخرى عهدى  
ألا فتزحزح يازمان فإننى      أقول فلا تقوى الجبال على صدى  
أنا الخالد السارى بأعصاب شعبه      وماشعبه بالترز أو ضرع الخلد

وماأنشدت القصيدة حتى تجلت نعمة الله على فيما لاقيت من تشجيع وتعزيد وقد نشرت القصيدة بالأهرام وبالرسالة؛ وكان ارتياح السامعين لها دافعى إلى أن أنهج نهجها فى قصيدة التأبين، والحق أنى سعدت بلقاء الأستاذ، وقد تكرم فأهدانى بعض قصصه، وكتب الإهداء منوهاً بزيارتى، وخرجت سعيداً مغتبطاً.

### استعارة من المكتبة:

كنت أراسل الأستاذ فى المناسبات العامة، فيرد على ثم جاءنى فى خطاب منه بعد انتقاله من المنصورة، وكنت مدرساً بها، يقول إن مدرسة الرشاد تطالبه بأربعة كتب ضاعت منه، ويريد منى أن أذهب إلى السيد ناظر المدرسة مستفسراً عن ثمن الكتب ليقوم بدفعه ثم ينتهى الإلحاح فى المراسلة، وقد سارعت إلى لقاء السيد أمين المكتبة، إذ هو القائم المباشر، فحدثته عن خطاب الأستاذ، فقام إلى السجل وذكر أن الكتب هى جزءان من حضارة الإسلام لآدم متر، والكشكول للعاملى، والموشى لأبى الطيب الوشاء، وقصة إنجليزية، فقلت له إن كتاب الحضارة بجزأيه عندى، وسأحضره من مكتبتى، أما الكتب الثلاثة فماذا نصنع بها؟ وكان الأمين

على معرفة تامة بالأستاذ، فقال : إنى اضطرت إلى مراسلته تنفيذاً لطبيعة العمل ، كيلا أسأل من فاحص يفتش علىّ، ويمكننى أن أسقط كتابين هذا العام من المستهلك ، قلت : من يسقط اثنين يسقط ثلاثة ، فسكت قليلاً ثم استجاب ، وذهبت فأحضرت كتاب الحضارة ، وأعلمت الأستاذ بما كان ، فكتب يشكرنى ، وأرسل إلى نسخة من كتاب الإمتاع والموانسة لأبى حيان التوحيدى فى ثلاثة أجزاء ، وقال إنها عوض عن كتاب الحضارة ، وقد بحث عنه فى القاهرة ليشتريه فلم يجده ، وعلمت أنه تحف أمين المكتبة بعدة روايات أدبية ، فتقبلها شاكرًا . . وقد انتقلت من المنصورة دون أن يعلم الأستاذ فكان يرسل بعض رواياته الجديدة إلىّ ، ولاتحول على عنوانى إذ يتهالك عليها الزملاء حين تنتهى إلى حجرة المدرسين ، علمت ذلك منذ سنوات ، فكتبت للأستاذ على أخبره بأن القصور الشائن الذى وقعت فيه ، حين لم أبادر بشكره على هداياه المتواصلة لاذنب لى فيه ، فقد انتقلت إلى الصعيد ، ولم أسعد بتسلم ماتفضل به من قصص فكان رد الأستاذ: لقد توقعت ذلك إحساساً لا يكذب فاطمن.

### زيارة مفاجئة :

رجعت إلى التدريس بالمنصورة ثانية ، وأعلمت الأستاذ بعنوانى الجديد ، فتلقت منه ذات يوم خطاباً يخبرنى فيه بأنه سيزور المنصورة ، صباح الجمعة القادم ، وقد اختار يوم الجمعة بالذات لأنه يتيح لى أن أن أصاحبه فى رحلة سأعرفها حين أقابله صباحاً بمقهى الكافورة ، وحين أزف الموعد قابلت الأستاذ فرحاً ، فقال لى : إن المجلس الأعلى للفنون والآداب قد عقد مسابقة أدبية عن انتصار المنصورة فى معركة لويس التاسع ، وهى معركة ذات إيحاء قومى ، فصمم على أن يشترك فى المسابقة بقصة يجعل عنوانها «دار ابن لقمان» وهى الدار التى أسر بها ملك فرنسا ، وظلت إلى الآن ناهضة تلقى حديث الانتصار على الأجيال ، وقد بدا له أن يصحبنى إلى أماكن بالدقهلية كانت مجال الصراع الحربى ، ليرى من المشاهد ما يوحى له بانطباعات قوية تلهمه وتهديه ، وذكر من هذه الأماكن جديلة ، وقرية أشمون ، والبحر الصغير الذى هيا المخاضة للعبور ، فقلت له إن جديلة قرية ونبدأ بها ، فقال هيا ، فقد كانت باب النصر حين وقف الظاهر بيبرس بجنوده ليسحق

القادمين فى حركة مفاجئة، وركبنا السيارة، إلى بلدة أشمون، وشاهدنا البحر الصغير الذى كان نقطة هامة فى مسار الواقعة فى بدء أمرها، وكان مع باكثر كتاب إفرنجى عن حملة لويس جعل يتصفحه ذاكراً مادون به من الأماكن والأسماء، فقلت له: وأين المراجع العربية؟

قال: لقد قتلها بحثاً، وأردت أن أتسلى بهذا الكتاب فى الطريق، ثم أخذ يتحدث عن خلاصة وافية لماكان، فقلت له: لقد سبق أن تحدثت عن الحروب الصليبية حين كتبت (سيرة شجاع) فقال لى: ومارأيك فيها؟ قلت: لأدرى ربما أكون مخطئاً إذا قلت إن جانب التاريخ قد طغى فى كثير من صفحاتها على جانب الفن، فرد فى ابتسامة: هذا والله شعورى، وقد كنت أكتبها وفى أعماقى أن أسطر التاريخ الحقيقى لأحىى النخوة النائمة فى نفوس مريضة حين أذكرها بتضحية شجاع بن شاور حين وقف أمام أبيه، وفضل أصرة الإسلام والعروبة على أصرة الدم، وكان من حقه أن ينال الجزاء الحميد، ولكنه اغتيل ظلماً للذنب لم يرتكبه، وقد تركت مأساته فى صدرى جراحاً لاتندمل، ففرجت عن كربتى بتخليد ذكره، فكتبت قصة موجزة عنه ونشرتها فى مجموعة روائية ثم أحسست أنى لم أفعل شيئاً، فكتبت (سيرة شجاع) فى هذا النطاق المتسع، لأرعى مشاعرى الخاصة قبل أن أرعى حق الشهيد النبيل!

قلت إن القصة جديرة بالتمثيل! قال: دعنى فأنا أكابد من مخرجى الأفلام فوق الطاقة، فهم يريدون أن تكون المرأة فى الرواية سيدة المواقف جميعها، وأن تحشر لقطات الغرام فى كل مشهد، وإن كانت الرواية حربية تمثل الشجاعة فى مضمار الفداء والتضحية فليس من المهم لديهم أن تبرز هذه المعانى، لكن المهم أن تكون الممثلة فاتنة ذات إغراء، فماذا تصنع؟

ثم سألتنى: أشاهدت قصة «سلامة» التى مثلتها أم كلثوم، لقد ظلمها المخرج ظلماً فادحاً، حين جعلها تظهر فى مرأى شائن يعبث بالتاريخ، فيغير الزمان والمكان وينطق الشاعرة الفصيحة بأزجال رخيصة، تثير الغرائز الهابطة، وماكانت هكذا «سلامة» وأنا أعلم أن أم كلثرم تتذوق الأدب العربى، وتغنى قصائد رائعة

لأبى فراس وأحمد شوقي وابن النبيه المصرى، فكيف تقبل أن تجارى هذا الانحدار، ثم إن مكان القصة هو الحجاز وله عقب خاص فى التاريخ أدبياً وفتياً، فكيف يكون المسرح فى العراق؟ وهو فى عهد «سلامة» مركز القلاقل الحربية والثورات السياسية وكيف يجرؤ مخرج يفهم حقيقة الفن أن يلحق «سلامة» طقاطيق «سلام الله على الأغنام» و «الحب حلو ولاحراق» و «غنى لى شوى» وهى عربية فصيحة نشأت فى عهد الأمويين؟ قلت: ألم تذكر أن القصة مسروقة ياسيدى فى أصلها وقد اغتصبت غصباً؟

فقال باكثير: ليست هذه أول مرة تغتصب أم كلثوم بإيحاء أحمد رامى عمل الآخرين، قصة «دنانير» كتبها الأستاذ إبراهيم جلال، وأعطاهام لأم كلثوم لتنظر فى صلاحيتها للتمثيل، وفوجئ المؤلف بأن أحمد رامى قد نسخ القصة وكتبها باسمه، فاحتج فى الصحف ولامن سميع!

كان حديث باكثير شائقا معجباً طول الرحلة، وليتنى دونته فى حينه، إذ لم يبق منه فى خاطرى غير قطرات من ابل دفاق!

لم تطرد مقابلاتى كثيراً، وإن كنت أتابعه قارئاً مستفيداً، وقد علمت أن أعداء العروبة والإسلام من الماركسيين قد أرهقوه، وحاربوا اتجاهه الملتزم، وضيقوا عليه حتى حدثته نفسه بالرحلة ثانية إلى حضرموت فراراً من هذا الاضطهاد الأثيم، ولكن الرحلة لم تكن إلى حضرموت بل كانت إلى جنة الخلد، وما عند الله أشهى وأطيب.

\*\*\*

## الأستاذ محمود على قراعة

لم أر فدايياً في عطائه العلمى مثله، لقد آلى على نفسه منذ تخرج في كلية الحقوق المصرية سنة ١٩٣٤ أن يصدر سلسلة الروح الجامعية، في أجزاء بلغت خمسة وعشرين كتاباً، أكثرها يفوق أربعمئة صفحة، وهو يطبعها على حسابه ويوزعها على القراء بدون أجر، إلا في أحيان قليلة تأخذ بعض الوزارات الثقافية عدة نسخ محدودة من كتاب، وتمنحه مايعادل أجر الطبع، وقد أحيل إلى المعاش مستشاراً لوزارة العدل، وله زملاء كبار يعرفون جهاده العلمى ويقدرون صبره علي البحث بدون نفع مادى بل بخسارة محققة، ولكنها كسب له في أجره الأخرى إذ تدور مؤلفاته حول شئون الفقه والإسلام والتاريخ رحمه الله.

عرفت الأستاذ محمود على قراعة في سن باكراً من حياتى التعليمية إذ قرأت له مقالاً ضافياً بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٩م عن نعيم الجنة ناقش فيه الدكتور زكي مبارك حول نعيم الجنة الأخرى، إذ ذهب الدكتور إلى أنه نعيم مادى حسى، وذهب الأستاذ قراعة إلى أنه نعيم روحى فحسب، وأطال في تعداد أدلة تؤيد منحاه، ويذهب إلى تأويل النصوص التى يدل ظاهرها على أن نعيم الجنة حسى وقد قرأت كلام الأستاذ فوجدت قدر فهمى إذ ذاك وأنا طالب بالقسم الابتدائى- أن من النصوص الصريحة ما لا يقبل التأويل حتى مع التعسف الشديد، وكتبت رداً بعثته إليه بعنوان مجلة الرسالة وبعد أسبوع تلقيت منه رداً مستفيضاً يبلغ خمس ورقات تردحم بالنصوص والتعليقات، ويختلط أسفلها بأعلاها، وعلى الهوامش من الجانبين تعليقات أخرى، مما يدل على أن الأستاذ حين كتب الرد وأراد مراجعته عنت له أفكار جديدة فأخذ يضعها فى الهوامش عن يمين وشمال ومن أعلى وأسفل! مشكوراً إذ لم يغفل اعتراضاً وجه إليه فدافع عن رأيه قدر المستطاع.

مضت سنوات طويلة جاوزت العشرين، ثم رأيت في البريد مجلداً كبيراً تحت عنوان (نفحات الحبيب الشفيق)، يصل إلى بالبريد مهدي من مؤلفه الأستاذ محمود على قراة، والكتاب ذو معلومات قيمة ولكن ترتيبه كان موضع نظر جاد مني، حيث تظهر العجلة البارزة في سرد الموضوعات وأفكارها دون اهتمام بالتوافق المطرد للأسلوب المتلاحم، فكتبت له شاكرأ، وأبدت رأيي في ترتيب الكتاب، وصادف أن كنت أمر في منشية البكري بشارع الخليفة المأمون فوجدت بطاقة تحمل اسم الأستاذ محمود قراة فدفعني إلى رؤيته على غير سابق موعد، وطرقت الباب لأجدي أمامه وجهاً لوجه، فهم للقائى وتبادلنا الحديث، فذكرته بخطابه القديم إلى حين كنت طالباً بمعهد دمياط، وقلت في ابتسام هادىء إن روح الماضى لاتزال تلوح في المؤلف الجديد، وأرى أن يهتم الأستاذ بترتيب الأبواب، وتنوع المصادر، فأصغى لى فى هدوء ومنحنى مؤلفاً للشيخ حمزة فتح الله، وهو جزءان تحت عنوان (المواهب الفتحية) وقال إنه فى غنى عنهما، لأن موضوعاتهما العلمية تناسب مدرساً للغة العربية مثلى، فشكرته شكرياً جزيلاً، ثم قال: إنه آلى على نفسه أن يخرج كل عام مؤلفاً إسلامياً، وهو يعمل ليل نهار بعد انتهاء عمله بالوزارة كى ينجز المؤلف فى زمنه المحدد، وهذا سر العجلة التى أبدت وجه النظر بشأنها، وانصرفت ولأدرى أوقع حديثى النقدى منه موقع الارتياح أم أنه آنس فى صراحتى موضعاً لقللة الذوق! بقيت حائراً لأهتدى إلى رأى قاطع ثم جاءنى بعد شهر كتابه «الأخلاق فى الإسلام»، من أحاديث الرسول، وفتاوى ابن تيمية» وفى مقدمته يتحدث الأستاذ عن أصدقاء كبار من زملائه أهدى إليهم الكتاب السابق وشكروه على اتجاهه، ثم قال «وأهدى هذا الكتاب إلى الأخ الأستاذ محمد رجب البيومى الذى أهديته كتابى الماضى فنقده صادقاً، وزارنى متفضلاً فسرده لى مأخذ الكتاب قبل محاسنه، فكان أصدق من رأيت فى حياتى».

قرأت هذه العبارة فعجزت عن شكره، لأنه بدد ظنى المتوهم من قبل، وأقبلت على قراءة كتابه الجديد (الأخلاق فى الإسلام)، من أحاديث الرسول وفتاوى ابن تيمية) فرأيت أن فتاوى ابن تيمية تكاد تكون وحدها مرجع المؤلف، كما وجدت الأبواب فى حاجة إلى ترتيب جديد، فدفعنى ماوجدت فى عبارته السابقة من -

تقدير للنقد، أن أبدى له وجهة نظري في كتاب (الأخلاق) ويظهر أني قسوت في النقد، أقول «يظهر» لأنني لا احتفظ بمسودات لما أكتب للأدباء والمؤلفين وبعد أيام جاءني خطاب مسجل منه في أربع صفحات يحتج على قولي في الخطاب السابق إذا أردت أن تطبع كتاباً جديداً، ففضل بدعوتي لشارك في ترتيبه، فرددت عليه، بما يثبت حسن نيتي وظننت أني تجاوزت الحد معه، وأنا والله محب صادق!

ثم كانت المفاجأة التي تدل على براءة الأستاذ وطيبة قلبه حيث وصلني مؤلفه الجديد «تكفير سيئات الصغائر بالقربات، وسيئات الكبائر بالتوبة» فوجدت الأستاذ يشير في مقدمة الكتاب إلى كل ما كان مني بشأن كتابه، فهو يقول في سجل إهدائه المتعارف (ص ١٠ من الكتاب):

«إلى الأخ الدكتور محمد رجب البيومي الذي ذكر في خطاب أرسله في أول أبريل سنة ١٩٦٧ عبارة تقول: إذا كان لي رجاء لديك، فهو أن تتكرم باستدعائي حين تفرغ من كتابة أى مؤلف لتتشار معاً في الحديث عنه، قبل أن يصبح حقيقة واقعة في أيدي القراء، ولما أرسلت إليه معترضاً على هذا القول منه - لأنني لأرضى عن قيم علي أفكارى، وإني قليل الكتابة في الصحف لأن رؤساء التحرير يعطون أنفسهم الحق في تحوير ما يصل إليهم من مقالات حتى ولو خرج عن هدف كاتبها، واني لأسترشد في كتاباتي إلا بضميرى، حتى أني لم أطلع أبى - رئيس المحكمة الشرعية السابق على ما أكتب، لما أرسلت إليه معترضاً، أرسل في ٥ أبريل سنة ١٩٦٧ يقول: سامحك الله يا أخى، لقد فهمت مالا أقصد وما لا يمكن أن أقصد، من قال إنى أريد أن أكون قائماً على تأليفك! لو كنت تعلم أن المؤمن مرآة أخيه، وأن المرحوم الأستاذ فريد وجدى وهو كان يخصنى بقراءة بعض ما يكتب وأمامك أستاذنا الزيات «يقصد الأستاذ أحمد حسن الزيات قبل وفاته»، فأسأله، فكثيراً ما تعرض علي مقالاته قبل أن تطبع، أين ذهب تفكيرك يا أخى سامحك الله، كل ما كنت أريد أن أقوله إنك مسرع جداً فى التأليف، لدرجة أن المؤلف الضخم من كتبك تخرجه فى أقل من عام، وهذا نشاط حميد ممتاز ولاشك، فهل إذا قلت إنى مستعد لمراجعة هذا الفيض الهادر كالطوفان معك، أكون مساعداً أو قواماً، لقد ضاعت معانى الألفاظ أو كادت فكيف يشتط بك الوهم؟!»

هذا ما سجله الأستاذ فى صراحة رائعة فى كتابه، ثم أفرد فى الهامشين المتتابعين من الكتاب صفحتين تتحدثان عن رسائل إليه، وكنت قد نسيت ما كتبت له، فلما أعاد تسجيل بعض المعانى الهامة فى هذه الرسائل خيل إلى أنى أقرؤها من جديد، وسأحاول أن أنقل منها فى هذا المقال، لأنها تصور علاقتنا الأدبية الصريحة أتم تصوير، وبذلك يكون الأستاذ محمود هو الذى يتحدث لأنا، حيث استوعب وفهم ولخص وأفاد..

يقول الأستاذ محمود «فى ص ١١ من كتابه» «أذكر عناية الأستاذ الدكتور البيومى بتقريظ كتيبى ونقدها فى آن واحد، فقد أرسل لى فى ١٢/١١/١٩٦١ عن كتاب (مشكلات عواطف الشباب) خطاباً يقول «فيه مزايا كثيرة أهمها وفاؤك لأساتذتك، وحشدك المعارف الكثيرة من كل ناحية مع اهتمام بالمثل العليا والسلوك النبيل، ورسم الطريق السوى، ولكننى أجد خلف ذلك أنى منه أمام غابة شجراء فيها الدوح والتمر والماء والطير، وفيها مع ذلك بعض الأشواك، فاعتمادك على بعض المصادر المتواضعة من ناحية ونقلك قصة الرجل الطيب محمد الجنبهيبى والإكثار من الحوادث الشخصية، كل ذلك يحتاج إلى تعديل ما».

هذا ما ذكرته وسجله الأستاذ، وإن كنت أذكر أنى أرسلت له صفحتين كبيرتين، فلا بد أن يكون للتقريظ صفحة، وللنقد صفحة مماثلة، وأنا فعلاً لم أمل من مؤاخذه الأستاذ على الإسهاب فى بعض مالاغناء فيه، وأذكر أنه قال فى زيارتى الأخيرة له قبل أن ينتقل إلى رحمة الله إنك لوقرات ما كتبه السيوطى وابن حجر والسخاوى فى مؤلفاتهم الموسوعية لرأيهم أكثر منى استطراداً وأطول إسهاباً، فقلت له: إن طابع العصر المملوكى غير طابع العصر الحاضر، إذ كان أكثر المؤلفين يجمعون ويلخصون دون تحليل أما نحن الآن فننفق عند الخبر الواحد وقفات مستأنية. لنسبر غوره، ونعرف أبعاده، وما يمكن أن يخفى تحت ألفاظه من المعانى التى لاتدرك إلا بإمعان، وردعلى الأستاذ بما لم أوافق عليه ليلتئذ، ولكن الجلسة كانت ذات ود وترحيب.

ويتابع الأستاذ حديثه عنى فيقول «أرسل إلى رداً على برقية لى أهنته فيها بالعام الهجرى يقول: وصلتنى برقيتك فعرفت منها الكثير، عرفت أن اعتزازك بالمواسم الدينية، يجرى في عروقك مجرى الدم ، وفى رثيتك مجرى التنفس، ولاريب فأنت غصن من دوحه طاهرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، وعرفت منها أنك كثير الوفاء حتى لمن لم يسعدهم الحظ بطول صحبتك [مثلى] ولكنهم يعرفونك على البعد، بأرائك الحية، ومؤلفاتك الخالدة، وتأثيرك البعيد، لقد رأيت أن أجمع مؤلفاتك فى مكتبتى المتواضعة، حيث أفردت لها مكاناً عزيزاً».

والحق أنى لم أتعود أن أتلقى تهنئات برقية فى مواسم الهجرة والمولد ورمضان، ولكن الأستاذ محمود كان يفاجئنى بهذه البرقيات ذات الدلالة النبيلة، وقد كتبت له ماسبق عند وصول برقيته الأولى خاصة بالتهنئة بالعام الهجرى، ثم تتابعت برقياته، لامختصرة مقتضبة، ولكن سطورها تتجاوز الخمسة، فكنت أكتفى بخطاب يتحدث عن الذكرى تارة، وعن تأثرى بهذا الشعور النبيل تارة! وكنتُ من زمن يسير أرى بعض الناس يتبادلون التهانى فى عيد الميلاد أوائل يناير، فأذكر الأستاذ محمود مترحماً عليه، وأقول لقد حاول الرجل أن يعلم أصدقاءه، ولكنه لم يفلح، إذ لاشك فى أنه كان يرسل هذه البرقيات الموسمية لعدد من أصدقائه ولا يختصنى وحدى!

ثم مضى بعد ذلك يذكر ماراسلته به عن كتابه «الأخلاق فى الإسلام» مسجلاً نقدى، ووجهة نظرى المخالفة، كما ذكر ماراسلته به خاصاً بكتابه (المسلم الكامل من أحاديث الرسول وفتاوى ابن تيمية) ولم ينس أن يسجل نقدى الجوهري له، والحق أن الأستاذ قراة كان فى نتاجه العلمى شعلة لاتخمد، فهو لايفتأ مفكراً فيما يكتب ويقراً على طريقته التى ارتضاها، وقد نشر وهو طالب بكلية الحقوق مؤلفاً عن الوقف فى الشريعة الإسلامية حاز تقدير فقيه العصر الشيخ أحمد إبراهيم بك رئيس قسم الشريعة بكلية الحقوق حينئذ، وقد سارع بعض مدرسى الشريعة بكلية إلى رجاء الطالب فى إعادة طبع الكتاب مع زيادة يسيرة يكتبها المدرس ليظهر الكتاب فى طبعته الثانية حاملاً اسميهما معاً، ولكن الطالب فاجأ أستاذه بالرفض .

فقال الأستاذ له إنه سيقدر الكتاب على الطلاب، فيضمن لك كسباً مادياً،  
وذاخراً علمياً، فأصر محمود على الرفض وهذا ما سجله في بعض مؤلفاته، وهو  
صادق لأنه يتحدث عن نفسه، فيسجل كل ما أخذ ووجه به، ومثله لا يلجأ إلى  
الادعاء!

كم أسفت لأنى كتبت رسائل نقدية كثيرة لمؤلفين! أهدوا كتبهم إليّ، بدون أن  
أحتفظ بصورة منها، لأن ما كتبت لهؤلاء لا يختلف عما سجله الأستاذ محمود في  
رحابة صدر، واتساع نفس، ونقاء ضمير . .

\*\*\*

## الأستاذ محمد زكى عبد القادر

كنت أحب أن أتحدث إليه ، وأصغى إلى أفكاره متحدثاً ، كما أستمع إلى أدبه قارئاً، ولكن الرجل متحفظ هادئ، لا يجمع حوله التلاميذ، ويؤثر أن يمضى فى عمله الفكرى كما يجرى الغدير الهادئ فى الغابة تحت ظلال الشجر دون أن يراه أحد فى صفائه الرائق وغيره المتألق ، وكان أعظم ما يبحرني فى أمره أنه كاتب قصة ممتاز. يصدر المجموعة خلف المجموعة ذات نبض نفسى، وحيوية اجتماعية وتصوير أدبى ثم لا يحسب مع القصص حين يتحدث الناقدون عن كتاب القصة لأن أشتغاله بالصحافة محرراً ذا لون خاص من ألوان التحليل وولوعه بالدراسات القانونية والسياسية جعل هؤلاء يحسبون أنه ضيف على القصة ، مع أن نتاجه الفنى يجلسه مجلس الفنان الأصيل وفى يوم من الأيام طلبنى الدكتور عبد الحسيب طه أستاذ الأدب بكلية اللغة العربية وقال لى : إن فضيلة الأستاذ الشيخ عبد السميع شبانة أستاذ النحو والصرف بالكلية قد انتقل إلى رحمة الله كما تعلم، وإنه من أسرة الأستاذ محمد زكى عبد القادر بفرسيس، إحدى قرى محافظات الشرقية، وقد اتصل الكاتب الكبير بالكلية راجياً أن يقابل أحد تلاميذ الشيخ، ليسأله عن تأثيره العلمى والاجتماعى فى محيطه الأزهرى، إذ يعد عنه دراسة تحبب ذكره ، وقد انتهت الكلية إلى أن تكون رسولها المختار إلى الرجل بمكتبه فى جريدة الأخبار، فماذا ترى؟

قلت: ياسبحان الله إنى مذ سنوات أتلمس الفرصة السانحة لمقابلة الكاتب الكبير، ولكنى لم أكن أحب أن أتطفل على مجلسه كيلا أكون ثقیل المحضر، وهامى ذى الفرصة تتهياً إلى، أنا سعيد بها كل السعادة.

وقد اتصل الدكتور عبد الحسيب بالأستاذ محمد زكى عبد القادر يخبره أنى سأكون فى زيارته بالساعة العاشرة من صباح الغد، وقد حاولت أن أهيمى فى نفسى أسئلة أدبية أتوجه بها لمفكر لكبير، ولكنى رجعت عن هذا المذهب، وقلت دع الحديث يجرى حرأ بدون إعداد.

قابلت الأستاذ فى الموعد المحدد، فرأيت من هدوته و سكون نظراته، واتناد منطقته ماتوقعته فى ذهنى قبل أن أراه، لأن كتابة الأستاذ تنبئ عن هدوء متزن بحيث لاتثيره العواطف الهائجة، وحين يستشار لا يخرج عن طبيعته الهادئة. بل يقابل النار الملتهبة بهدوء يشبه الماء البارد الذى يطفى الحريق المشتعل، وقد حيانى تحية طيبة ثم قال إن الفقيد العزيز من أخلص أقربائه، وقد فقد بفقده دوحة وارفة الظل، إذ كان إيمانه الجازم يبعث فى روحه سلاماً ينتقل إلى سامعه فيطرد عنه عواصف الشك، ويفسح أمامه طريق الأمل، وكان الأستاذ يسعى إلى لقائه فى أزمامته الفكرية لينتقل من جو إلى جو. فيعود وقد أزاح عن صدره مايحمل من الأعباء ولذلك يسألنى عن سلوكه الروحى واتجاهه العلمى فى محيطه الأزهرى.

قلت إن ماذكرته عن صفاء الأستاذ وقوة إيمانه قد كان مصدر سلوكه الاجتماعى بكلية اللغة فنحن التلاميذ كنا نعتبره والدا قبل أن نعتبره أستاذاً إذ كان يحرص على أن يعرف أحوال الطلبة الاجتماعى وظروفهم النفسية ويحدد مواعيد اللقاء بمنزله المتواضع وله فى تحديد الميعاد فطرة مطبوعة على التقوى إذ يقول للطلاب تزرونى بعد صلاة العصر من يوم كذا، أو بعد صلاة المغرب من يوم كذا، أو بعد صلاة العشاء من يوم كذا، وبهذا أصبح موعد الصلاة هو عقرب الساعة الذى يحدد الميقات! ثم يستقبل زائره ببشاشة ويخوض معه فى شتى أموره. وقد يكون الطلاب أربعة أو خمسة أو أكثر فيجلسون مع الأستاذ على السجادة، وكانهم يجلسون فى المسجد وقد يحضر بعض الأساتذة لزيارته وكلهم من ذوى اتجاهه. فلا يتغير الوضع، إذ الجميع جلوس يتناقشون أو يتسامرون.

ابتسم الكاتب الكبير وقال هذا ماتوقته تماماً دون أن أراه ، لأن سلوك الأستاذ فى قريته (فرسيس) مع أبنائها الفلاحين أو العمال أو الطلبة هو سلوكه الذى تحدثت عنه وكنت أثناء زيارتى للريف لأجده إلا ساعياً للخير، مصلحاً بين زوجين يتشاجران ، أو مواسياً مريضاً عز عليه الشفاء أو ساعياً فى إيجاد وظيفة لعاطل محروم، حتى كانت إجازته السنوية موضع ارتقاب القرية جميعها ، وكنت أغبطه على اتجاهه الذى لا أقدر عليه!

ثم سألتى الكاتب الكبير قائلاً: وماذا عن اتجاهه العلمى، وطريقته فى التدريس؟

قلت: لقد كان الأستاذ يدرس مادة عسيرة الهضم، شديدة التعقيد، وهى مادة (الصرف) وكان يدرس للسنة الرابعة أعقد أبواب هذه المادة وهو باب (الإعلال والإبدال) فيبذل جهده الجاهد فى تذليل الصعاب وتقريب البعيد، وقد وضع للطلاب كتاباً طبع خمس طبعات وهو فى كل طبعة يكثر من الأسئلة ويجيب على التمارين ويصنع ما يشبه المعجزة فى تفتيت الأحجار.

قال الأستاذ: أريد أن أقرأ نموذجاً من كتاب الصرف؟

قلت متسرعاً: الكتاب فى منهجه الدراسى لا يروق لغير الوسط الأزهرى لأن الطلاب قد ألفوا هذه المادة من السنة الابتدائية الأولى. ولا يزالون يوالونها اهتماماً وتحصيلاً حتى يبلغوا السنة الرابعة بالكلية، فتكون لديهم ركنية ثابتة تعين على الاستمرار.

فأجاب الأستاذ: وهل تكون هذه المادة أصعب من مادة أصول الفقه وقد درستها بسهولة فى كلية الحقوق ثم فى الدراسات العليا بالكلية دون أجد صعوبة ما.

قلت: إن دراسة علم الأصول بكليات الحقوق غيرها بكليات الأزهر، لأنى أعرف أن أساتذة الشريعة هناك من أمثال الشيخ أحمد إبراهيم والأستاذين عبد الوهاب خلاف، وعلى الخفيف، ومن سار هذا المسار، قد كتبوا مذكرات واضحة

تجمع حقائق هذا العلم، وأراحوا الطلاب من عناء الحواشى والتقارير، التى تدرس بكلية الشريعة بالأزهر! ولذلك فدراسة الأصول عندك كانت مريحة لامتملى بالعقبات.

فرد الرجل فى ابتسام: أنت محيط واسع، ويسعدنى أن أعرفك. ولكن لا بد أن تحضر لى نسخة من مؤلف الأستاذ، وسأنتظرک فى بحر أسبوع، فلا تبطئ، ثم صافحنى بحرارة وودعنى إلى الباب.

**بعد أسبوع :**

رجعت للأستاذ بعد أسبوع، ومعى نسخة من كتاب (القواعد والتطبيقات فى الإبدال والإعلال)، فأخذها الأستاذ، ونظر إلى العنوان دون أن يتجاوزه ثم قال لى: لقد وفيت بوعدك، وأنا أشكرک، ثم أسألك عن قراءتك الثقافية لأعرف اتجاه طلاب الأزهر الآن!

فأجبت: كنت طالباً بالقسم الثانوى أيام كانت تصدر مجلتا الرسالة والثقافة، وكنت أعتز بهما اعتزازاً كبيراً، ولم يفتنى عدد منهما درن قراءة واعية ثم استدرت أقول، وكنت أطلع على فترات متقطعة (مجلة الفصول) التى كنت تشرف على إصدارها،

فابتسم وقال: هذه تحية منك ولا أعجب لاختيارك مجلتى الرسالة والثقافة فهما لسان التراث العربى بالذات، والأزهريون حفظة هذه التراث.

فرددت فى سرعة: نظلم الرسالة والثقافة حين نؤكد أنهما تقصران بحوثهما على التراث العربى وحده، إذ كان أعلام الفكر فى مصر يحتلون صفحاتها وهؤلاء الأعلام لا يعيشون على طعام واحد، وإذا كانتا تهتمان بالتراث العربى فهذا ضرورى محتوم لأنه يمثل الجذور التى تمد الشجرة بالغذاء! على أنى أرى أن الرسالة مع اهتمامها بالثقافة الغربية كانت أقرب إلى التراث العربى من الثقافة، لأن القائمين على تحرير الثقافة لجنة علمية لافرد واحد، وفى هذه اللجنة الأديب

والعالم والمهندس ومن يمثلون فروع المعرفة المختلفة، أما الأستاذ الزيات فهو وحده المسئول عن الرسالة، وقد أظهر مجلة الرواية عدة سنوات لتقوم بنشر الروائع الممتازة من أدب الغرب، كما ترجم قصصاً ممتازة لجى دى موباسان، ولامرئين، وجوته، وغيرهم.

قال الرجل فى هدوء هذا صحيح ، وماذا تتذكر من موضوعات (مجلة الفصول)؟

قلت: أذكر اتجاهها الممتاز إلى الوضع الاجتماعى ومحاربة الفساد سياسياً واقتصادياً، وتسليط الأضواء على الحياة الغربية، ولأدرى لماذا تقترن فى ذهنى أعداد الفصول بأعداد مجلة (المختار)؟

فضحك الرجل ، وقال: هذا نقد مقنع ، معناه أننا ننقل من المختار، فقلت، قد يكون النقل فى الإطار العام، لافى العناصر الداخلية، فالفصول مصرية ، ومصرية مشرفة، وأخذ الحديث يدور فى شئون كثيرة حتى رأيت أن أستأذن، فقال لى الأستاذ ، لاتنس أن تكثر من زيارتى فقد بدأت أشتاق إليك .

### زيارة مفاجئة:

مضت مدة طويلة ولم تسمح زيارتى الخاطفة إلى القاهرة بالتردد على الأستاذ، وفى بعض الأعوام تلقيت خطاباً من الأستاذ عبد الرحيم فودة رحمه الله يعلن فيه أنه سيقوم بتحرير الصفحة الدينية فى جريدة الأخبار طيلة شهر رمضان، وأنه يطلب منى عشر مقالات موجزة ، لتأخذ دورها فى النشر ، ويترك لى تحديد الموضوعات، على ألا تخرج عن الإطار الدينى المناسب للشهر المبارك وحبذا أن تتجه للتاريخ الإسلامى، وقد رحبت بالفكرة إذ صادفت هوى فى نفسى وأرسلت المقالات العشر للأستاذ قبل أن يبتدئ الشهر الكريم ، وقد بدأت الجريدة فى نشر ما أرسلت ولكننى فوجئت بأنها تختصر بعض المقالات مع أنها موجزة بطبيعتها والصعب المؤلم فى هذا الاختصار أنه يغفل التحليل الذاتى للنصوص والأحداث ، وتثيبت الآثار والوقائع الشائعة المشتهرة، وبهذا أكون مجرد ناقل! فتأثرت كثيراً ورأيت أن أصبر فلعل الاختصار لا يستمر ، ثم فوجئت ببعض مقالاتى تظهر فى الصفحة الدينية بدون توقيعى، وبغير أن تنسب إلى كاتب ما، فلم أستطع

التحمل، وسافرت إلى إدارة الجريدة من الفيوم التي كنت أعمل بها وقابلت المحرر المختص، إذا كان الأستاذ عبد الرحيم غير موجود، فقال لى: هذه ضرورات صحفية لا بد منها وسأقبض ثمن مانشر سواء أكان المقال موقعا باسمى، أم غفلاً من الإمضاء! فحدثنى نفسى أن أتصل بالأستاذ محمد زكى عبد القادر وهو بالدار فى مكتبه الخاص لأعرض عليه ظلامتى، وفوجئ الأستاذ برؤيتى على غير انتظار فوقف يستقبلنى فى بشاشة، وقد حدثته بما وجدت فاستمع فى هدوء مفكر، حتى إذا أفرغت ما فى جعبتى قال لى فى أناة مطمئنة، وكأنه يتحدث عن مسألة لا تخصنى.

قال الأستاذ: أما إهمال اسمك عند التوقيع، فهو موضع المؤاخذه، ولا أدرى ما سبب ذلك، وما حكمه؟ فالمقال دينى، ولا يتحمل نتائج خطيرة تكون موضعاً لتحقيق ما، وسأتصل بالقائم على النشر يستدرك الوضع، أما الحذف من بعض المقالات، فهذا ملاحيلة فيه، وأنا شخصياً أعانى من جراء ذلك، فقد أكتب فى اليوميات مقالاً متماسكاً لاسبيل إلى الحذف منه، ثم أفاجأ باختصاره للحرص على إعلان صحفى هبط على الجريدة فجأة، وهو لديها أعز من المقال، فأسكت بدون أن أعترض وقد أكتب مقالاً لا يرتفع إلى مرتبة الجودة، ثم لانتصادفه نائبة تحذف منه شيئاً بأكمله، والحظوظ التى تعترى البشر، تعترى المقالات، فقد تولد طفلة رائعة الجمال فى بيت فقير لاتجد ربه الضرورى الذى يساعد على تربيته، وقد تولد الدميمة فى قصر فاخر وتجد من عشرات الخدم من يترقب رغباتها فى دقة وسرعة! ولا يهملك إذا تعلق الحذف بعنصر هام، فإن الأذواق تختلف، وقد يرحب القراء بالموجود أكثر من المفقود.

لم يخرج الأستاذ محمد زكى عبد القادر عن طبيعته الهادئة فى الرد على، فقد تحدث وكأنه يكتب مقالاً يعرض فيه الوجوه المختلفة، فقلت له: أتمنى من الله أن أرزق شيئاً من رحابة صدرك واتساع أفقك لأستريح، فأنا ضيق الأفق، ضيق الصدر، سأستعيد ما قلت بينى وبين نفسى، ولكن هيهات أن أبلغ أوج الكاتب الفيلسوف!

لم أقابل الأستاذ بعد هذا الحديث ولكننى قرأت نبأ انتخابه عضواً بمجمع اللغة العربية فأبرقت إليه مهنتاً ، ثم لم أجد البرقية الصغيرة تكفى عن خواطرى ، فأرسلت إليه خطاباً مسهباً ، أقول فيه :

إن أكثر من لجنة فى لجان المجمع ستسعد بمشاركته ، لأنه كاتب موسوعى مجدد ، وإنه سيخلع النشاط والجدة فى كل مكان يسعد بنشاطه ، ورد على الأستاذ بخطاب شاكر يعلن أنه فرح بالبرقية وبالخطاب لأنهما صدى نفس صادقة مخلصه ، مهما بالغت فأسرفت ، وطلبت أن أزوره بمكتبه وهذا لم يتح ، لأن الأمور تجرى كما يريد خالقها أن تكون .

\*\*\*